

الفروقات الأساسية بين النظرية والنموذج في المقاربات السوسيو اتصالية

The basic differences between theory and model in socio-communicative approaches
Les différences fondamentales entre théorie et modèle dans les approches socio-communicatives

عفاف بعون¹*

تاريخ الإرسال: 2024/11/10 تاريخ القبول: 2024/12/21 تاريخ النشر: 2024/12/30

ملخص:

إن المتأمل للدراسات السوسيو اتصالية يلاحظ اختلافا واضحا بين النهج النظري والنماذج التطبيقية المستخدمة لفهم الظواهر الاجتماعية. وعليه سنحاول من خلال هذا المقال إبراز الفرق بين النظرية السوسولوجية والنماذج الاتصالية، من حيث التعريفات والأهداف. بحيث سنتطرق إلى كيفية سعي النظريات السوسولوجية لتقديم تفسيرات شاملة حول العوامل الاجتماعية التي تؤثر على التفاعل البشري وسلوك الأفراد والجماعات داخل المجتمع. كما سنناقش كيف تمثل النماذج الاتصالية أدوات تحليلية تساعد في تبسيط وتوضيح عملية التواصل من خلال توضيح عناصره الأساسية، مثل المرسل والمستقبل والقناة، مما يساهم في فهم فعالية الرسالة وتحليل العوامل المؤثرة عليها. كما سيتم التأكيد على أهمية التكامل بين النظريات والنماذج، ودوره في توجيه الباحثين لاختيار الأداة الأنسب للدراسة، مما يعزز الفهم المتكامل للتفاعلات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: النظرية؛ النموذج؛ الدراسات السوسيو اتصالية؛ النظرية السوسولوجية؛ النماذج الاتصالية.

Abstract:

A careful examination of socio-communication studies reveals a clear distinction between the theoretical approach and the applied models used to understand social phenomena. In this article, we will attempt to highlight the difference between sociological theories and communication models in terms of definitions and objectives. We will explore how sociological theories aim to provide comprehensive explanations of the social factors affecting human interaction and the behavior of individuals and groups within society. Additionally, we will discuss how communication models serve as analytical tools that help simplify and clarify the communication process by outlining its essential elements, such as the sender, receiver, and channel, thereby contributing to understanding message effectiveness and analyzing the factors influencing it. Emphasis will also be placed on the importance of integrating theories and models and its role in guiding researchers to choose the most suitable tool for their study, thereby enhancing an

*عفاف بعون

¹Afaf Baoune, University of Ouargla, The Laboratory for the Development of Psychological and Educational Practices
Algeria, baoun.afaf@univ-ouargla.dz

integrated understanding of social interactions.

Keywords : Model ; Socio-communicative Studies ; Sociological Theory ; Communicative Models.

Résumé :

Un examen attentif des études socio-communicatives révèle une distinction claire entre l'approche théorique et les modèles appliqués utilisés pour comprendre les phénomènes sociaux. Dans cet article, nous tenterons de mettre en évidence la différence entre les théories sociologiques et les modèles de communication en termes de définitions et d'objectifs. Nous explorerons comment les théories sociologiques visent à fournir des explications complètes des facteurs sociaux qui affectent l'interaction humaine et le comportement des individus et des groupes au sein de la société. De plus, nous discuterons de la manière dont les modèles de communication servent d'outils analytiques qui aident à simplifier et à clarifier le processus de communication en décrivant ses éléments essentiels, tels que l'émetteur, le récepteur et le canal, contribuant ainsi à comprendre l'efficacité du message et à analyser les facteurs qui l'influencent. L'accent sera également mis sur l'importance de l'intégration des théories et des modèles et son rôle dans l'orientation des chercheurs vers le choix de l'outil le plus adapté à leur étude, améliorant ainsi une compréhension intégrée des interactions sociales.

Mots clés : Théorie ; Modèle ; Études socio-communicatives ; Théorie sociologique ; Modèles communicatifs.

مقدمة

في دراسة الظواهر السوسيو اتصالية، تعد كل من النظرية والنموذج أدوات أساسية لتحليل التفاعل الاجتماعي وفهم ديناميكيات الاتصال بين الأفراد والجماعات. ورغم أن كلا منهما يساهم في تقديم رؤية قيمة لفهم هذه الظواهر، فإن هناك فروقات جوهرية تميز بينهما، سواء من حيث الأهداف أو من حيث طريقة التعامل مع عناصر التواصل الاجتماعي. تمثل النظريات أطرا شمولية تساعد على تفسير الظواهر من منظور واسع ومجرد، حيث تسعى إلى الربط بين المبادئ العامة والواقع الاجتماعي لتوضيح كيفية تأثير العوامل الثقافية والنفسية على عملية التواصل. أما النماذج، فهي تجسد تمثيلات عملية تسعى إلى تبسيط الظاهرة وتقديم خطوات واضحة تسهل تحليل الاتصال وتقييم فعاليته ضمن سياقات محددة.

إن استخدام النظرية في البحث العلمي يتطلب معرفة طبيعتها وأشكالها وكذا مفاهيمها. ومنه فالهدف الأسمى للنظرية هو توجيه البحث العلمي نحو الأهداف التي يسعى هذا الأخير إلى تحقيقها. أما النموذج فهو ذلك الإطار الميداني الذي يفرضه الواقع، بحيث له القدرة على تفسير بعض الحالات الخاصة. ومنه ومن خلال هذه الورقة البحثية نسعى إلى تفسير وشرح وتوضيح أبرز الفروقات بين النموذج والنظرية في دراسة الظاهرة السوسيواتصالية، من أجل فهم

أكثر للعلاقة بين الاتصال والمجتمع، إذ لا يمكن فهم هذه العلاقة دون وضعها في قالب نظري. وبناء على ما سبق طرحنا التساؤل الآتي: ما هي أبرز الفروقات بين النظرية والنموذج في دراسة الظاهرة السوسيواتصالية؟

- تساؤلات الدراسة

1. ما هي الفروقات الجوهرية بين النظرية والنموذج في تحليل الظواهر السوسيواتصالية، وكيف يؤثر ذلك على فهمنا لديناميكيات الاتصال الاجتماعي؟
2. متى يكون استخدام النظرية أكثر فعالية في دراسة الظاهرة السوسيواتصالية، ومتى يفضل تطبيق النموذج كأداة تحليلية؟
3. كيف يمكن أن يسهم التمييز بين النظرية والنموذج في تحسين جودة البحوث السوسيواتصالية وتقديم رؤى أعمق حول طبيعة التفاعل الاتصالي؟

- أهداف الدراسة

1. توضيح الفرق المفاهيمي بين النظرية والنموذج في دراسة الظواهر السوسيواتصالية، من خلال استعراض التعريفات الأساسية لكل منهما.
2. تسليط الضوء على كيفية تناول كل من النظرية والنموذج للظواهر السوسيواتصالية، حيث تقدم النظرية تفسيراً شاملاً ومجرداً بينما يقدم النموذج تمثيلاً عملياً ودقيقاً لعناصر التفاعل الاتصالي.
3. إبراز أهمية هذا التمييز للباحثين والدارسين، من خلال توضيح متى يستحسن استخدام النظرية لفهم العوامل الاجتماعية الكبرى، ومتى يفضل اللجوء إلى النماذج لتحليل ديناميكيات الاتصال ضمن سياقات محددة.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية هذه الدراسة في مجموعة من الجوانب الأساسية التي تسهم في إثراء الفهم العميق للظواهر السوسيواتصالية وتوجيه الباحثين في هذا المجال، ومن أهمها ما يلي:

1. توجيه الباحثين في اختيار الأدوات التحليلية المناسبة، ففهم الفرق بين النظرية والنموذج يساعد الباحثين على تحديد الأسلوب الأنسب لدراسة الظواهر السوسيواتصالية، سواء من خلال إطار نظري شامل أو من خلال نموذج تطبيقي محدد.

2. تعميق فهم القراء لديناميكيات الاتصال الاجتماعي: من خلال تقديم أوضح لكيفية تفسير النظريات للعوامل المجردة التي تؤثر على التفاعل الاجتماعي، ويبرز كيفية تطبيق النماذج لفهم تفاعلات محددة، مما يثري فهم القراء لطبيعة التواصل البشري.

3. تسهيل تطوير البحوث السوسيوإتصالية من خلال تمييز الأدوار المختلفة للنظريات والنماذج، يمكن للباحثين بناء دراسات أكثر دقة وتحديد أولويات البحث بشكل واضح، سواء بهدف التفسير العام للظاهرة أو لتحليل عناصر الاتصال بشكل عملي.

4. يوفر للباحثين والمهتمين بالدراسات الاجتماعية والاتصالية أسسا لاختيار وتطبيق النماذج في البيئات المؤسسية والتعليمية والإعلامية.

1- تحديد المفاهيم

قبل التطرق للفرق بين النظرية والنموذج، لابد من الإشارة إلى مفهوم النظرية في حد ذاته، حيث تدور حول هذا المفهوم الكثير من الشكوك في مختلف الحقول المعرفية، خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأنه يصعب إيجاد أو إعطاء تعريف واضح للنظرية.

ونجد مشكلة ضبط مفهوم النظرية منصبة عادة في مجال الإعلام والاتصال، فنجد كثيرا من المراجع التي تجمع على إعطائها تسمية "نظرية"، بينما نجد بعض المراجع تطلق عليها اسم "نموذج"، ومنه سنتطرق إلى توضيح كلا من مفهومي النظرية والنموذج.

1-1 النظرية

تحتل النظرية في العلوم الاجتماعية بصفة عامة، وفي علم الاجتماع بصفة خاصة مكانة ولها أهمية كبيرة، فهي بمثابة الأساس الذي يركز عليه أي علم، وتحدد قوة العلم وتماسك بنيته بقوة الأساس الذي بني عليه. ومنه تعرف النظرية بأنها:

مجموعة من القضايا المترابطة، أو مجموعة من مبادئ وتعريفات مترابطة تفيد في تنظيم جوانب مختارة من العالم الإمبريقي على نحو منظم ومنسق. كما أنها إطار فكري يفسر مجموعة من الفروض العلمية ويضعها في نسق علمي مترابط. (الصالح، 1999، صفحة 561)

وفي المعنى الفلسفي والعلمي: هي مخطط من الأفكار أو الأحكام التي تراعى كتوضيح أو تفسير لمجموعة من الوقائع أو الظواهر، أي هي فرضية تؤكدتها أو ترسخها الملاحظة أو التجريب وتقتصر أو تقبل كتفسير لوقائع معروفة.

وبيان لما يعتبر قوانين عامة، أو مبادئ، أو أسباب شيء ما معروف أو ملاحظ. (طوني و آخرون، 2010، صفحة 692)

هناك فرق شاسع بين الاستعمال العلمي لكلمة نظرية والاستعمال العام لها. ففي الشكل العام يقصد بها أي رأي أو فرضية، وليس بالضرورة أن تكون مبنية على حقائق. أما في المجال العلمي تشير إلى نموذج مقترح لشرح ظاهرة ما.

1-2 النموذج

منح علماء الاجتماع لهذا المصطلح معان متعددة ومختلفة، ففي بعض الحالات استخدم باعتباره مرادفا للنظرية. كما استخدم في حالات أخرى للإشارة إلى نسق من المفاهيم المجردة (عند مستوى أكثر عمومية من النظرية).

كما استخدم للإشارة إلى النموذج الإحصائي " كما هو الحال في بناء النماذج العلية ". إن جوهر النماذج هو أنه يتطلب اشتغال الباحث بالنظرية ومن ثم تجنب النزعة الامبريقية. وتهدف النماذج في الأساس إلى تبسيط الظواهر كمساعدة في عملية الصياغة المفاهيمية والتفسير. (مارشال، 2001، صفحة 1545)

ومنه النموذج هو تمثيل مبسط، على شكل مخطط مثلا، حيث يمكن التعرف على مختلف العناصر المكونة للنظرية الممثلة، وتبين بدقة التأثيرات المتبادلة بين هذه العناصر، ويصف إذا كان يصف النتائج المحصل عليها. و يعتبر النموذج تقريريا وضعية موجودة. (الدليمي، 2016، صفحة 19)

هو محاولة لتقديم العلاقة الكامنة التي تفترض وجودها بين المتغيرات التي تصنع حدثا أو نظاما، في شكل رمزي. (اسماعيل، 2003، صفحة 197) (بمعنى أنها عبارة عن أدوات رمزية تساعدنا في فهم الظاهرة).

ومن خلال الطرح السابق فإن النموذج هو أداة تصويرية يوفر إطارا للافتراضات تتحدد في نطاق المتغيرات الهامة وتفترض علاقات معينة بين الأحداث التي تمت دراستها. (المشاقبة، 2015، صفحة 43)

نرى أن النظرية هي عبارة عن "نموذج للواقع" يشرح بعض الحقائق العلمية المعينة، إلا أنها قد لا تعطي رغم ذلك صورة مرضية عن الواقع. فقد تنشأ نظرية أخرى أكثر مقبولة تحل محل النموذج السابق أو قد تستخدم نظرية جديدة لتعديل نظرية أقدم.

1-3 نماذج الاتصال

من أهم الأهداف التي يسعى إليها أي علم، زيادة فهمنا للظواهر التي تحيط بنا، وكذا الوصول إلى تعميمات عن

الظروف المحيطة، تدعمها الأدلة العلمية والموضوعية، أما الهدف الثاني هو مساعدتنا على التنبؤ بالنتيجة.(مكاوي و السيد، 1998، صفحة 35)

هي عبارة عن نماذج تشرح وتفسر عملية الاتصال وكيف تتم هذه العملية، حيث تبدأ بالقائم بالاتصال الذي يضع المعاني التي يريد إيصالها للآخرين في قالب رمزي ثم يضمنها رسالة، مستخدماً الوسيلة ليصل بالمعاني المطلوبة إلى المتلقي أو المستقبل. (اسماعيل، 2003، صفحة 196)

ويمكن تعريف مصطلح النموذج على أنه وسيلة تصويرية أو استخدام الرسم لشرح أو تسهيل فهم عملية الاتصال المجردة، وقد يستخدم البعض مصطلح نموذج ليشير إلى وصف نموذج عام أو اتجاه سائد في التفكير البحثي، مثل نموذج التأثيرات القوية، الذي ساد بداية الدراسات العملية في الاتصال، والتي ترى أن تأثير الاتصال قوي ومباشر وفعال. ومن ثم أطلق البعض على هذا الاتجاه نموذج الرصاصة.(القميزي، 2017، صفحة 57)

كما يعرف النموذج الاتصالي بأنه وسيلة للإيضاح وشرح الفكرة أو تحليل عناصرها. وهدف نماذج الاتصال هو دراسة الاتصال وتعريفه وشرح عملية الاتصال والعوامل المؤثرة فيها من خلال الفكر النظري والتطبيقي لكل دراسة أو اتجاه في هذا المجال.(المشاقبة، 2015، صفحة 43)

ومن خلال ما سبق نرى أن النموذج مصطلح مرادف لنظرية الاتصال فهو يعتبر صورة تصويرية أو إطار ذهني يعكس الواقع من خلال تبسيطه باستخدام رموز تساعد على فهم وتفسير العلاقة بين الأجزاء المكونة لظاهرة ما.

2-الاختلاف بين النظرية والنموذج (الفروق بينهما)

ويقع في القلب من النماذج، من النماذج العامة وحتى النماذج المقياسية، توظيف عملية التمثيل لكي تصف جوانب معينة من إحدى الظواهر أو شكل للفاعل بين مجموعة من الظواهر.

وفي إطار الحديث عن نمذجة السلوك البشري، أن الفارق الأكثر أهمية بين النظريات والنماذج يكمن في أن النظرية يكمن دورها في الشرح والوصف، أما الثانية يقتصر دورها فقط على التفسير (بيد أنها تظل قادرة على التنبؤ وإن يكن بشكل محدود). وتختلف النماذج عن النظريات في أن دور النظريات هو التفسير، أما دور النماذج هو التمثيل. (باتشيرجي، 2015، صفحة 49)

كما أن الفرق بينهما يكمن كذلك في كون النظرية تعد صياغة علمية لمجموعة فرضيات تعبر عن الحقيقة. أما النموذج فهو دراسة تقترب من الحقيقة، فقد عرف "ديوتش" النموذج بأنه: " عبارة عن بناء من الرموز والقوانين العاملة التي يفترض أن تماثل مجموعة نقاط ذات صلة ببناء قائم أو بعملية ما.(عابد، 2015، صفحة 77)

إن جوهر النظرية هو تفسير الظاهرة، بينما النماذج لا تقوم سوى بالكشف والإيحاء، كما أنها (النظرية) تمثل الوسائل المفيدة التي يمكن أن يستخدمها الباحث في دراسته أو بحوثه. (عبد الكافي، 2003، صفحة 473)

وتختلف النظرية عن النموذج في كون الأولى تأخذ في الحسبان طبيعة العلاقة والتفاعل بين المتغيرات، إذ تعد النظرية قالب فكري منظم يبدأ بمجموعة التخيلات العقلية (الفروض العلمية) تقوم بربط مجموعة من المتغيرات تعين الباحث على تفسير العلاقة بين المتغيرات تفسيراً منهجياً. (اسماعيل، 2003، صفحة 243)

وأهم فرق بين النظرية والنموذج كما سبق وأن أشرنا سابقاً فيكمين في أن الأولى تشرح وتصف فيما يقتصر دور الثاني على التفسير. حيث أن النموذج يعد تمثيلاً للواقع، ولكن بصورة رمزية. فتستخدم مثلاً الخريطة لتمثيل المكان. أما في دراسة الاتصال فإنه يستخدم النموذج لكي يعبر عن واقع عملية الاتصال. فالنماذج الاتصالية عبارة عن أدوات تساعد على فهم الظاهرة أو النظام، وإدراك العلاقات بين العناصر الأساسية في تلك الظاهرة. إذ يتيح نموذج الاتصال للباحثين أبسط وأفضل الطرق لتفسير التفاعل الإنساني الذي يتسم بالتعقيد. (عزت، 2018، صفحة 19)

ومن شأن النظرية أن توفر لنا إطاراً تفسيرياً للظواهر التي نقوم ببحثها أو دراستها. فالنظرية عبارة عن بناء معرفي مجرد، بينما النموذج هو بناء امبريقي ميداني فرضه الواقع. وللنظرية القدرة على التعميم أي أنها تدرس كل الحالات. في حين نجد النموذج يدرس حالات خاصة.

إن النموذج وسيلة نظرية تبنى من أجل التفسير والتنبؤ بحوادث تخص العلوم والظواهر الاجتماعية. ويسمح نموذج واحد بتفسير عدة ظواهر مختلفة ويقتصر كل نموذج على وصف جزء أصغر وأكثر دقة للواقع التجريبي وعلى هدد أصغر من الظواهر التي يمكن أن تظهر في عدد أقل من الوضعيات. (الدليمي، 2016، صفحة 20)

يستخدم النموذج أحياناً كمرادف للنظرية، ويمكن النظر إلى النموذج والنظرية باعتبارهما أدوات للشرح، أو أطر للمفاهيم، وتتصف النماذج بأنها تستخدم التشبيهات لإعطاء صورة بصرية أو بيانية عن الظاهرة المراد شرحها. وتكون النماذج أدوات مساعدة في الوصول إلى رؤية واضحة إذا التزمت بالدقة والتركيز على القضايا الأساسية للظاهرة محل الدراسة. وكثيراً ما يتم التعبير عن النظرية بنموذج، باعتبار أن هذا الأخير يعني رسماً مبسطاً للنظرية. (إبراهيم، 2017، صفحة 22)

الجدول -1- يوضح أهم الفروقات بين النظرية والنموذج من حيث الهدف والاستخدام

العنصر	النظرية	النموذج
التعريف	إطار مفاهيمي يسعى لتفسير الظاهرة من خلال مبادئ عامة.	تمثيل مبسط لشرح كيفية تفاعل عناصر محددة ضمن الظاهرة.
الهدف	تقديم تفسيرات شاملة حول الظاهرة ككل.	توضيح التفاعل الاتصالي بطريقة عملية وتبسيط عناصره الأساسية.
التركيز	تجريدية وعمومية، تركز على القوانين أو المبادئ العامة.	محددة وقابلة للتطبيق، تركز على وصف العمليات الأساسية.

الاستخدام	لفهم تأثير العوامل الاجتماعية والنفسية بشكل واسع.	لتحليل ديناميكيات محددة في بيئات وسياقات معينة.
أمثلة	نظريات مثل "التبادل الاجتماعي" أو "الاعتماد على الإعلام".	نماذج مثل "شانون وويفر" أو "لاسويل" للاتصال.
نطاق التطبيق	مناسب للأبحاث النظرية وتفسير العلاقات الاجتماعية الشاملة.	مناسب للتطبيق العملي وتحليل العمليات الاتصالية في بيئات مختلفة.
الأهمية	يوفر إطاراً مرجعياً لفهم العوامل المؤثرة في الظاهرة.	يساعد في التمثيل العملي والتحليل الدقيق لعناصر التفاعل الاتصالي.

المصدر: (إعداد الباحثة انطلاقاً من قراءة عدة مؤلفات)

1- النظرية السوسولوجية والنماذج الاتصالية

1-3 النظرية السوسولوجية

النظرية السوسولوجية هي إطار فكري يساعد على فهم وتفسير السلوك الاجتماعي والعلاقات بين الأفراد في المجتمع. تهدف هذه النظريات إلى تحليل كيفية تشكل المجتمع، وكيفية تأثير العوامل الاجتماعية، مثل القيم، الأعراف، السلطة، والاقتصاد، على سلوك الأفراد والجماعات. تركز النظرية السوسولوجية على تقديم تفسيرات عامة للمجتمع ككل، وتساعد على فهم أعمق للعمليات الاجتماعية التي قد تبدو معقدة ومتعددة الأوجه.

ومن الأمثلة عن النظريات السوسولوجية يمكن ذكر أشهرها، وهي :

- **نظرية التفاعل الرمزي:** تركز على كيفية استخدام الأفراد للرموز، مثل اللغة والإشارات، للتفاعل والتواصل. هذه النظرية تشير إلى أن التواصل هو عملية بناء المعنى بين الأفراد في سياق اجتماعي معين.
- **نظرية الصراع:** تقوم على فكرة أن المجتمع يتألف من طبقات تتنافس فيما بينها على الموارد والسلطة. تدرس هذه النظرية كيفية تأثير القوة والصراع على تشكيل المجتمع.
- **النظرية الوظيفية:** ترى أن كل جزء من المجتمع يلعب دوراً وظيفياً في الحفاظ على استقراره، حيث تعمل المؤسسات مثل الأسرة والتعليم والدين على تلبية احتياجات المجتمع.

2-3 النماذج الاتصالية

النماذج الاتصالية هي أدوات تحليلية تستخدم لتمثيل وتبسيط عمليات الاتصال بين الأفراد أو الجماعات. تهدف النماذج إلى توضيح كيفية انتقال الرسائل من المرسل إلى المستقبل، والعناصر التي قد تؤثر على فعالية هذا التواصل، مثل التشويش أو التغذية الراجعة. تستخدم النماذج الاتصالية لفهم الخطوات التي تمر بها عملية الاتصال، والعوامل التي قد تسهم في نجاح أو فشل الرسالة.

ومن الأمثلة على النماذج الاتصالية، يمكن ذكر بعضها فيما يلي:

- نموذج شانون وويفر للاتصال: يعتبر من أقدم النماذج، ويصف عملية الاتصال كمسار يتكون من عدة عناصر: المرسل، الرسالة، القناة، المستقبل، والتشويش. يركز النموذج على كيفية نقل المعلومات ويستخدم في فهم العوائق التي قد تؤثر على وضوح الرسالة.

- نموذج لاسويل: يعتمد على أسئلة بسيطة لتفسير عملية الاتصال: "من؟ يقول ماذا؟ لمن؟ عبر أي وسيلة؟ ولأي تأثير؟" ويعد هذا النموذج أساساً لفهم أهداف الاتصال وتأثيره.

- نموذج بيرلو: يركز على العلاقات بين المرسل والمستقبل، ويوضح كيف يمكن أن تؤثر الخلفية الثقافية والاجتماعية على فهم الرسالة والتفاعل الاتصالي.

4- الفرق بين النظرية السوسيولوجية والنماذج الاتصالية

إن النظرية السوسيولوجية تسعى إلى تقديم تفسير شامل للعلاقات الاجتماعية والقوى التي تؤثر عليها، وتوضح كيفية تشكل المجتمع واستمراره من خلال مجموعة من المبادئ والقوانين العامة.

ومنه، تكون النظرية أكثر فعالية عند دراسة الظواهر السوسيواتصالية من منظور شمولي عميق، حيث تسهم في توفير إطار فكري يساعد على فهم الجوانب الكبرى والتوجهات العامة للظاهرة، مثل كيفية تشكل العلاقات الاجتماعية عبر وسائل الإعلام أو كيف تؤثر وسائل الاتصال على ثقافة المجتمع. فالنظرية وفق هذا التصور تساعد على رؤية الظاهرة من منظور واسع يربطها بالسياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية، مما يمكن الباحث من استكشاف الأبعاد المعقدة التي لا يمكن قياسها مباشرة.

أما النماذج الاتصالية فإنها تركز على العملية الاتصالية ذاتها، وتقوم بتبسيطها من خلال عناصر معينة. تهدف النماذج إلى فهم خطوات الاتصال وتحليل العوامل التي قد تعرقل أو تعزز فعالية الاتصال.

ويفضل استخدام النموذج كأداة تحليلية عندما يكون التركيز على تحليل جوانب محددة وقابلة للقياس من الظاهرة السوسيواتصالية، خاصة إذا كانت هناك حاجة لتفصيل العناصر والعمليات الفردية داخل الظاهرة. النموذج يقدم تصوراً مبسطاً أو مصغراً للظاهرة يمكن من خلاله قياس العلاقات بين المتغيرات وتحليل التفاعلات بأداة عملية تسمح بتطبيق البيانات وتجريب فرضيات محددة.

4-1 أهمية كل من النظرية السوسيولوجية والنماذج الاتصالية في الدراسات السوسيواتصالية

توفر النظريات السوسيولوجية خلفية شاملة لفهم السياقات الاجتماعية التي تجري فيها عمليات الاتصال، بينما تساعد النماذج الاتصالية على تمثيل وتحليل هذه العمليات بشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً. استخدام النظريات والنماذج

معا يمكن الباحثين من الحصول على صورة متكاملة عن كيفية تفاعل الأفراد وتبادلهم للرسائل في سياقات اجتماعية مختلفة.

وتتمثل العلاقة بين النظرية السوسيوولوجية والنماذج الاتصالية في تكامل أدوارهما لفهم أعمق للظواهر السوسيواتصالية. تقدم النظرية السوسيوولوجية إطارا شاملا يفسر العوامل الاجتماعية التي تؤثر على السلوك الجماعي وعمليات التواصل، مما يوفر خلفية اجتماعية وثقافية لفهم كيف ولماذا يتفاعل الأفراد كما يفعلون. من جانب آخر، تأتي النماذج الاتصالية لتمثل عملية التواصل نفسها بطريقة مبسطة، موضحة المراحل والعناصر الأساسية التي تمر بها الرسائل، مثل المرسل والمستقبل والقناة والتشويش. يساعد هذا التكامل الباحثين على النظر إلى التواصل كعملية تحدث في سياق اجتماعي محدد، مما يمكنهم من تحليل ديناميكيات الاتصال بوضوح ودقة ضمن الإطار الأوسع الذي توفره النظرية.

مع تزايد استخدام الأنترنت وما يشهده العالم من تغيرات متسارعة في الميدان التكنولوجي والإعلامي، أدى كل ذلك إلى حدوث تغيرات عديدة ومختلفة اجتماعية، ثقافية، في شتى المجالات. ومن بين تلك المجالات المجال الاتصالي، حيث تغيرت أنماطه. فبعد أن كانت تقوم العملية الإعلامية (التي تقوم على ثنائية مرسل ومستقبل)، نجد أنها اليوم تغيرت فلم يعد هناك مرسل ومتلقي بل أصبح ذلك المتلقي بإمكانه أن يرسل ويستقبل في نفس الوقت للمادة الإعلامية.

فبظهور الإعلام الجديد، نجد أن هناك من دعوا إلى إعادة النظر في النظريات المتعلقة بالاتصال والإعلام، خاصة وكون وسائل الإعلام التقليدية تم ربطها بمظاهر الإعلام الجديد. لذا يرى الباحثون أن هذا الأخير قام بهدم النسق التنظيري التقليدي. إذ لم يعد هناك متلقي بل أصبح صانعا في العملية الاتصالية ومنتج للمادة الإعلامية.(بن عمار، 2015، صفحة 224)

والمتتبع للنتاج العلمي في نظريات الإعلام والاتصال يعرف أن حقل الإعلام والاتصال لا يزال يفتقر إلى نظريات علمية محددة تنطلق منها دراسته وتبنى عليها فرضياته وأدبياتها. وما هو موجود من النظريات في دراسة الإعلام والاتصال ومراجعته إنما هو من جهود غير المتخصصين فيه.

إن التراكم النظري حول نظرية بعينها يعود أساسه إلى نتائج دراسات أجراها المتخصصون في علم الاجتماع أو علم النفس، أو العلوم السياسية. أو غيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى.(العبد الله، 2006، صفحة 63)

من خلال الطرح السابق نجد أن علم الاتصال استفاد من نتائج البحوث الاجتماعية والنفسية والسياسية وحتى الاقتصادية. ومنه يمكن القول إن النماذج الاتصالية مستمدة من النظريات السوسيولوجية، فهي تستمد مفاهيمها وفرضياتها من تلك النظريات.

إذ استندت النماذج الاتصالية على العديد من النظريات السوسيولوجية، حيث دمجت المفاهيم والفرضيات السوسيولوجية لفهم كيفية انتقال المعلومات وتأثيرها على الأفراد والمجتمعات. على سبيل المثال، استند نموذج "التدفق على مرحلتين" الذي قدمه لازارسفيلد إلى فهم سوسيولوجي للعلاقات الاجتماعية وأدوار قادة الرأي، حيث بين أن التأثير الإعلامي لا يحدث بشكل مباشر بل يتوسطه هؤلاء القادة الذين ينقلون المعلومات والتأثير إلى بقية المجتمع. كذلك، اعتمدت نظريات التأطير وجدولة الأولويات (**Agenda-setting**) على مفاهيم سوسيولوجية تتعلق بعملية بناء الواقع الاجتماعي، حيث تبرز كيف تساهم وسائل الإعلام في تشكيل الأجندة العامة وتحديد الأولويات المجتمعية.

كما ساهمت البحوث النفسية، لاسيما تلك المتعلقة بالتأثير والإقناع، في إثراء علم الاتصال من خلال فهم عمليات التأثير والتفاعل الفردي مع الرسائل الإعلامية، وهذا ما يبرز في نظريات مثل "النموذج الإقناعي" ونظريات "التفاعل الرمزي". أما البحوث السياسية، فقد أثرت في فهم دور الإعلام في التأثير على السلوك السياسي وتشكيل الرأي العام، وهو ما يظهر في النظريات المتعلقة بالدعاية والهيمنة الثقافية.

بالتالي، فإن النماذج الاتصالية تعد جزءا من نسيج نظري مترابط، يعتمد فيه على النظريات السوسيولوجية والنفسية والسياسية والاقتصادية لتطوير فهم أعمق لأثر الاتصال على الفرد والمجتمع.

وقد طرح علماء الاجتماع الأوائل أسس دراسة الاتصال بين الأشخاص والاتصال الجماهيري، لكنهم لم يطلقوا عليه هذه المسميات في الوقت الذي وضعوا أسس تحليل العلاقات بين الأشخاص ذات الارتباط الشديد بظروف حركة التصنيع. (ميغري، 2018، صفحة 72)

لقد قامت السوسيولوجيا في بدايتها بدور كبير وفعال وبنائي في بلورة نظريات الاتصال بين الأشخاص والاتصال التنظيمي. وقد استغل ارثها كل من علم النفس الاجتماعي وأثنوبولوجيا الاتصال.

ونجد عالم الاجتماع "غابريال تارد" قدم مساهمات حاسمة في نظريات الاتصال. كما سمحت النظرية النقدية بالإضافة إلى علم الاجتماع النفسي اللازارسفيلدي بهيكلية المقاربات السوسيولوجية لوسائل الإعلام والاتصال. كما تكمن فائدة النظرية النقدية في تقديم سقالة أولى لنظرية الهيمنة الثقافية التي تعبر عنها وسائل الإعلام والاتصال. (ميغري، 2018، صفحة 105)

حيث يعد "غابريال تارد" من أوائل علماء الاجتماع الذين تناولوا موضوع الاتصال وتأثيره على المجتمع، فقد ركز على فكرة "المحاكاة" واعتبرها أساس تكوين الرأي العام. وقد أسس لمفهوم التفاعل الاجتماعي عبر التأثيرات المتبادلة بين الأفراد والأفكار المنتشرة في المجتمع، مما ساهم في تطوير فهمنا لكيفية انتشار الأفكار والمعتقدات من خلال وسائل الاتصال.

أما "النظرية النقدية"، فقد جاءت لاحقاً لتنتقد البنية الرأسمالية للثقافة، وركزت على كشف أشكال الهيمنة الثقافية التي تفرضها وسائل الإعلام على الجمهور. فالمنظرون النقديون، مثل أتباع مدرسة فرانكفورت، رأوا أن وسائل الإعلام ليست مجرد أدوات اتصال بريئة، بل إنها وسيلة لتعزيز مصالح القوى المسيطرة وإدامة السيطرة الثقافية، وذلك عن طريق تقديم محتوى موجه يعيد إنتاج القيم والمعايير المجتمعية التي تخدم تلك القوى.

في هذا السياق، أضاف "عالم الاجتماع بول لازارسفيلد" بعداً نفسياً اجتماعياً على دراسات الإعلام والاتصال، حيث حاول من خلال دراسته للاتصال الجماهيري تحليل كيفية تأثير وسائل الإعلام على الرأي العام من منظور التأثيرات النفسية والاجتماعية. فقدم نموذج "تأثير الرصاصة" الذي يفترض أن لوسائل الإعلام قدرة مباشرة وقوية على التأثير في الجمهور، ونموذج "التدفق على مرحلتين" الذي يبين أن التأثير لا يحدث مباشرة، بل عبر وسطاء أو قادة رأي في المجتمع.

وهكذا، تعتبر النظرية النقدية بمثابة إطار أولي لما يعرف بنظرية "الهيمنة الثقافية"، حيث تبين كيف يمكن لوسائل الإعلام أن تشكل وعي الأفراد وتعيد تشكيل قيمهم بحيث تتناسب مع مصلحة القوى المسيطرة.

4-2 مثال توضيحي

لتوضيح العلاقة بين النظرية السوسيوولوجية والنماذج الاتصالية في دراسة الظواهر السوسيوإتصالية، يمكننا النظر إلى دراسة تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على السلوك الاجتماعي للأفراد.

4-2-1 النظرية السوسيوولوجية

في هذا السياق، يمكن الاعتماد على نظرية التفاعل الرمزي، التي تركز على كيفية تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض من خلال الرموز (مثل اللغة والصور والإشارات). تفترض هذه النظرية أن الأفراد يبنون فهمهم للعالم الاجتماعي استناداً إلى التفاعل الرمزي مع الآخرين، حيث يعيدون تشكيل هوياتهم وسلوكياتهم من خلال التفاعل المستمر مع محيطهم.

وفقا لهذه النظرية، تعزز وسائل التواصل الاجتماعي بناء المعاني والهويات بطرق جديدة ومعقدة، حيث يواجه الأفراد تفاعلات مكثفة ومتنوعة من أشخاص ينتمون إلى خلفيات وثقافات مختلفة، وهو ما يعرف بظاهرة العولمة الرمزية. لذا، فإن النظرية توضح كيف أن وسائل التواصل تؤثر على الهويات والعلاقات الاجتماعية من خلال ديناميات التواصل المفتوح والتفاعلات الرمزية.

4-2-2 النماذج الاتصالية

لتطبيق نظرية التفاعل الرمزي في هذا السياق، يمكن الاستعانة بـ "نموذج انتشار الابتكار" (Diffusion of Innovations)، الذي يدرس كيف تنتشر الأفكار أو السلوكيات الجديدة داخل المجتمع عبر مراحل مختلفة: المعرفة، الإقناع، القرار، التنفيذ، والتأكيد. يستخدم هذا النموذج لقياس مدى انتشار أفكار معينة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتحليل تأثيرها على المواقف والسلوكيات الاجتماعية.

من خلال نموذج انتشار الابتكار، يمكن دراسة كيفية تأثير المحتوى الشائع على شبكات التواصل الاجتماعي، مثل الهاشتاجات (#) الرائجة أو تحديات وسائل التواصل، على سلوك المستخدمين. على سبيل المثال، عندما يظهر تحد أو حملة معينة تهدف إلى نشر فكرة معينة (مثل حملة للتوعية بمخاطر المخدرات)، يوضح النموذج كيف تنتشر الفكرة من المستخدمين المبكرين إلى أغلب المستخدمين، ويكشف كيفية تأثير هذا الانتشار على السلوكيات المجتمعية.

4-3 التكامل بين النظرية والنموذج في المقاربات السوسيواتصالية

التكامل بين النظرية والنموذج في الدراسات السوسيواتصالية يوفر للباحثين نهجا متعدد الأبعاد لفهم الظواهر المعقدة للتواصل الاجتماعي. حيث يساعد كل منهما في إكمال جوانب مختلفة من التحليل البحثي: إذ توفر النظرية إطارا شموليا يوضح الخلفيات المعرفية والفكرية للظاهرة، بينما يتيح النموذج تحليل تفاصيل وآليات الظاهرة على مستوى متغيرات محددة وقابلة للقياس.

هنا، يتم توظيف النظرية لفهم الإطار العام للعلاقات الرمزية وكيف تؤثر وسائل التواصل على الهوية والسلوكيات الفردية، بينما يستخدم النموذج لتحديد مراحل وأشكال الانتشار والتأثير في سياقات مختلفة. فالنظرية توفر لنا تفسيراً عميقاً للتفاعلات الرمزية، بينما يساعد النموذج في قياس ودراسة كيفية انتقال الأفكار والتأثيرات عبر الشبكات الاجتماعية، ويسهم في توضيح آلية التأثير وتغيير السلوك. بهذا التكامل، تصبح لدينا رؤية شاملة وعملية لفهم كيفية تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على السلوك الاجتماعي، بدءاً من الأساس النظري لفهم التفاعلات الرمزية وصولاً إلى

النماذج التي تقيس وتوضح هذه التأثيرات في البيئة الرقمية.

جوانب التكامل بين النظرية والنموذج في المقاربات السوسيوإتصالية

1- تقديم رؤية شاملة وتفصيلية في الوقت نفسه: حيث يساعد التكامل بين النظرية والنموذج الباحث على بناء صورة شاملة عن الظاهرة السوسيوإتصالية، مع التركيز في الوقت نفسه على التفاصيل الدقيقة للتفاعلات الاجتماعية. فالنظرية توفر الرؤية العامة حول العلاقات بين الفرد والمجتمع وتأثير الوسائط الاجتماعية، بينما يقدم النموذج الأداة اللازمة لتحليل تلك العلاقات بتفاصيلها عبر متغيرات قابلة للقياس.

دراسة تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على المشاركة السياسية. يمكن استخدام نظرية المجال العام (Public Sphere Theory) لتفسير كيفية تشكل النقاش العام عبر وسائل التواصل. من ثم، يستخدم الباحث نموذج تفاعل الجمهور (Audience Engagement Model) لقياس أنماط التفاعل المختلفة (مثل التعليقات، والمشاركات، والإعجابات) وتحليل كيفية استجابة المستخدمين لمحتوى سياسي محدد.

2- اختبار وتأكيـد الافتراضات النظرية عبر تحليل تجريبي: إذ توفر النظرية افتراضات حول طبيعة الظاهرة، بينما يتيح النموذج اختبار هذه الافتراضات ميدانياً. فالتكامل بينهما يمكن الباحث من بناء فرضيات منطقية وتأكيدها أو دحضها بالاعتماد على تحليل ميداني دقيق.

في دراسة تأثير وسائل الإعلام على القيم الثقافية، يمكن استخدام نظرية "الغرس الثقافي" (Cultivation Theory)، التي تفترض أن التعرض المتكرر للمحتوى الإعلامي يؤثر على مفاهيم الناس وقيمهم. يتم اختبار هذا الافتراض عبر نموذج "الاتصال الجماهيري" (Mass Communication Model) كأداة تحليلية مناسبة لفهم كيف يتم بناء الرسائل الإعلامية وكيف يتفاعل الجمهور معها. فهذا النموذج مفيد في تحليل تأثير وسائل الإعلام على القيم الثقافية لأنه يركز على عدة عناصر أساسية يمكن من خلالها تتبع كيفية انتقال الرسائل الإعلامية من المرسل (المؤسسات الإعلامية) إلى المتلقي (الجمهور)، وقياس الأثر على القيم الثقافية. هنا يتم تحليل القيم أو الرسائل التي تتبناها وسائل الإعلام وتكررها، مثل قيم الاستهلاك أو معايير الجمال أو الأفكار المرتبطة بالهوية الاجتماعية. من خلال دراسة نوعية القيم المعروضة في المحتوى، مثل مدى تكرار صور معينة عن النجاح أو السعادة المرتبطة بالمال أو الشهرة. يمكن استخدام التحليل الكمي هنا لتحديد مدى تكرار القيم المرتبطة بالموضوع الثقافي.

3- تعميق الفهم حول ديناميكيات الظاهرة: من خلال استخدام النظرية كنقطة انطلاق، يمكن أن يقدم النموذج تحليلاً للأنماط والاتجاهات الناتجة عن التفاعل السوسيواتصالي، الأمر الذي من شأنه أن يعمق الفهم حول كيفية تشكل هذه الأنماط وديناميكياتها. فالنظرية تطرح أسئلة شمولية، بينما يقدم النموذج إجابات عملية من خلال التحليل الكمي أو النوعي.

التكامل بين النظرية والنموذج يثري الدراسات السوسيواتصالية، ويزودها بأدوات تحليلية قوية تتيح فهماً أعمق للتفاعلات الاجتماعية المعاصرة. حيث تساعد النظرية في تفسير النتائج ضمن سياق اجتماعي وثقافي، والنموذج يقدم بيانات تفصيلية تدعم هذه التفسيرات. وبذلك، يمكن للباحثين الوصول إلى نتائج دقيقة حول كيفية تأثير الظاهرة المدروسة، وتقديم توصيات قابلة للتطبيق مبنية على أسس علمية متكاملة.

خاتمة

تعتبر الفروقات بين النظرية والنموذج في المقاربات السوسيواتصالية من الأمور الجوهرية لفهم الديناميات الاجتماعية والتواصلية. فالنظرية تمثل إطاراً شاملاً يتضمن مجموعة من المبادئ والمفاهيم التي تفسر الظواهر الاجتماعية، بينما النموذج هو تجسيد عملي أو تخيلي لتلك المبادئ، يهدف إلى تحليل سلوكيات أو عمليات محددة في سياقات معينة. إن التمييز بين هذين المفهومين يسمح للباحثين والمهتمين بفهم كيفية تكامل الأفكار النظرية مع التطبيقات العملية، مما يعزز من قدرة الدراسات السوسيواتصالية على تفسير وتحليل التفاعلات الاجتماعية بشكل أكثر دقة وفاعلية. وبالتالي، فإن الالتزام بالتحليل النقدي لكلا المفهومين يعد خطوة أساسية لتطوير الفهم النظري والتطبيقي في هذا المجال.

يمكن أن يكون النموذج عبارة عن تحليل تجريبي يسلط الضوء على تفاعلات محددة أو ظواهر معينة، مثل نماذج التواصل الرقمي أو نموذج التأثير الاجتماعي. إن هذه النماذج لا تستخدم فقط كأدوات لتفسير الظواهر، بل أيضاً كوسائل لتطوير استراتيجيات تواصل فعالة تعكس التنوع والتعقيد في العلاقات الاجتماعية. ومنه، تكمن أهمية التمييز بين النظرية والنموذج في أنه يعزز من قدرة الباحثين على دمج الأفكار النظرية مع التطبيقات العملية، مما يساعد على تحسين جودة الدراسات السوسيواتصالية. فعندما يتبنى الباحثون مزيجاً من النظرية والنموذج، يصبحون قادرين على تقديم تحليلات أكثر دقة وفاعلية، تساعد على فهم الديناميات الاجتماعية المعاصرة.

علاوة على ذلك، فإن الاعتراف بهذا التمييز يساهم في تحفيز النقاشات الأكاديمية حول كيفية تطوير النظرية والنموذج معاً. فالنظرية بحاجة إلى نماذج تجريبية تدعمها، والنماذج تحتاج إلى أساس نظري يوجهها. وبالتالي، فإن

العلاقة بين النظرية والنموذج ليست علاقة أحادية الاتجاه، بل هي تفاعلية تعكس التحديات والتغيرات المستمرة في مجالات السوسيواتصالية. وعليه، فإن التفاعل بين النظرية والنموذج يمثل خطوة أساسية نحو تطوير الفهم النظري والتطبيقي في المجال السوسيواتصالي، مما يتيح لنا معرفة جوانب جديدة من العلاقات الاجتماعية والتواصلية، ويساعد في مواجهة التحديات الراهنة في عالم متغير ومعقد.

كما يمكن القول أن علم الاتصال يستمد قوته النظرية من تداخله مع العلوم الأخرى، مما يتيح له فهما شاملا لتأثير وسائل الإعلام على الأفراد والمجتمعات. ومن خلال تبني المفاهيم السوسيولوجية والنفسية والسياسية والاقتصادية، أصبحت النماذج الاتصالية أكثر قدرة على تحليل آليات التأثير وبناء الرأي العام. وهكذا، يبرز الاتصال كأداة فعالة ليس فقط لنقل المعلومات، بل أيضا لتشكيل الوعي المجتمعي وتوجيهه.

قائمة المراجع:

- 1- إريك ميغري. (2018). سوسيولوجيا الاتصال والميديا. (تر: نصر الدين لعياضي) المنامة، مملكة البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار.
- 2- اسماعيل إبراهيم. (2017). مناهج البحوث الإعلامية. القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع.
- 3- اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي. (2003). معجم مصطلحات عصر العولمة. القاهرة: الدار الثقافية للنشر والتوزيع.
- 4- الدليمي، م. ع. (2016). نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرين. عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- 5- المشاقبة، ب. ع. (2015). نظريات الاتصال. عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.
- 6- أنول باتشيرجي. (2015). بحوث العلوم الاجتماعية، (الإصدار 2). (تر: خالد بن ناصر آل حيان)، عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- 7- بينيت طوني، و آخرون. (2010). مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع). (تر: سعيد الغانمي)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- 8- جوردن مارشال. (2001). موسوعة علم الاجتماع (المجلد 3). (تر: محمد محمود الجوهري)، المشروع القومي للترجمة.
- 9- حمد بن عبد الله القمزي. (2017). تقنيات التعليم ومهارات الاتصال (الإصدار 2). القاهرة: دار روابط للنشر وتقنيات المعلومات.
- 10- زهير عبد اللطيف عابد. (2015). الإعلام الجماهيري (الإصدار 2). عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- 11- سعيدة خيرة بن عمار. (2015). إشكالية التنظير والتطبيق في علوم الإعلام والاتصال. مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، 2 (8)، 228/213.
- 12- محمد فريد عزت. (2018). الاتصال ووسائله الجماهيرية (التقليدية والتكنولوجية). القاهرة: دار النشر للجامعات.
- 13- محمود حسن اسماعيل. (2003). مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير. الهرم: الدار العالمية للنشر والتوزيع.
- 14- مصلح الصالح. (1999). الشامل - قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية - . الرياض: دار عالم الكتب للطباعة.
- 15- مكاي، ح. ع.، والسيد، ح. ل. (1998). الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- 16- مي العبد الله. (2006). نظريات الاتصال. بيروت: دار النهضة العربية.

